

الشيعة العرب: مواطنون لا رعايا

2017-09-09 عريب الرنتاوي

ما كان لإيران أن تحظى بكل هذا النفوذ في أوساط الشيعة العرب، لو أن حكومات ما بعد الاستقلالات العربية، نجحت في بناء دولة المواطنة الفاعلة والمتساوية، دولة جميع أبنائها وبناتها، دولة جميع مكوناتها وكيانها... فشل الدولة الوطنية العربية الحديثة، كان سبباً رئيساً في تحوّل قطاعات واسعة من الشيعة العرب إلى "رؤوس جسور" للنفوذ الإيراني المتزايد في المنطقة.

ما ينطبق على الشيعة العرب، ينطبق بقدر أكبر أو أقل، على مكونات أخرى، فلو أن أكراد المنطقة جرى إدماجهم في دولهم ومجتمعاتهم، على قاعدة الاعتراف بمواطنتهم وحقوقهم الوطنية كأقلية قومية، لأمكن توفير الكثير من الدماء والدمار في حروب عبثية، ولما تفاقم الميل الانفصالي عند غالبيتهم الساحقة، ولما تحول بعضهم إلى رأس جسر أيضاً للنفوذ الإقليمي في المنطقة، ولما تفاقمت الخشية من "إسرائيل ثانية" كما يردد البعض منّا محقاً أو متطيراً.

لا تستطيع حكومة أي دولة من دول الانتشار الشيعي في العالم العربي، خصوصاً المشرق والخليج، أن تزعم بأن هذه الفئة من مواطنيها كانوا يعاملون بالسوية ذاتها مع بقية المكونات والمواطنين الآخرين... فالمظلومية الشيعية أكبر من أن تغطي بادعاءات ومزاعم، تفضحها الحقائق الصلبة والعنيدة التي استبطنتها مئات الأبحاث والتقارير وألوف التغطيات الصحفية، عن "المحرومين" في لبنان و"التجنيس السياسي" في أطراف الخليج، مروراً بعمليات العزل والإقصاء والسقوف الخفيضة التي ظل هؤلاء يمارسون حياتهم تحتها.

ولا يمكن القبول بنظرية أن "المستبد العادل" وزع استبداده بالقسطاس بين مختلف المكونات التي تشكل مجتمعاتنا، فالقول على سبيل المثال، إن صدام حسين على سبيل المثال، كان ديكتاتوراً على الجميع بلا استثناء، لا يلغي حقيقة أن حصة الشيعة العراقيين من جبروته، لا يعادلها سوى حصة الأكراد منه... صحيح أن أهل السنة من عرب العراق، لم يسلموا من طغيانه واستبداده، لكن الصحيح كذلك أن حصة هذين المكونين من عقوباته الجماعية، كانت الأكبر والأفدح.

إلى أن وصلنا إلى الانقسام المذهبي الأخطر في المنطقة، أو "الشرخ القاري" الذي قسمها إلى شطرين متصارعين في سنوات العربي السبع الفائتة، هنا جرى الزج بمكونات اجتماعية إضافية للارتقاء في الحزن الإيراني، من خطاب الكراهية ضد علويي سوريا، وانتهاء بحروب علي عبد الله صالح الست ضد الحوثيين، والتجيش المذهبي السلفي ضد المدعوم خليجياً، مع أنه ظل يُنظر إلى الزيدية اليمنية هي أقرب المذاهب الإسلامية إلى أهل السنة والجماعة، قبل أن يجري تنمطها ووضعها في سلة واحدة مع "ولاية الفقيه".

اليوم، خرج "المارد الشيعي من قمقمه" على وقع الهزائم التي منيت بها الولايات المتحدة والفراع الذي تركته في العراق من جهة، وتنامي نفوذ حزب الله في لبنان والإقليم بعد حرب التحرير في 2000 وعدوان تموز في 2006، فضلاً عن هزيمة المحور "السني" المدعوم أمريكياً في سوريا، وصمود اليمن في وجه "عاصفة الحزم" لثلاث سنوات متتالية رغم الفجوة الهائلة في موازين القوى والعدة والعتاد والعديد.

بعض رموز الشيعة العرب، أخذوا يتدمرون من النفوذ المهيمن للمدرسة الإيرانية، مدرسة ولاية الفقيه، في أوساطهم، رأينا حالات تمرد على الثنائي الشيعي في لبنان، ورأينا ميلاً استقلالياً جارفاً عند رجل السياسة والدين مقتدى الصدر، ورأينا انبثاق تيار الحكمة على حساب المجلس الأعلى، ونرى شروخاً داخل الدعوة بين المالكي والعبادي، ونستمع لأصوات من هنا وهناك، تعبر عن ضيقها بمصادرة الهوية الوطنية الخاصة للشيعة العرب، ومحاولة فرض مدرسة واحدة وقراءة واحدة عليهم جميعاً، هي المدرسة الإيرانية وقراءة الولي الفقيه... وهناك أصوات تخشى على مستقبل الشيعة من مسلسل الانتقام المتبادل الذي يطل برأسها من بين ثنايا التطورات والأحداث التي تشهدها دولنا ومجتمعاتنا بتسارع لافت.

مثل هذا الميل، يعيد التذكير بأن أصل التشيع، عربي بامتياز، وهو سابق لتحول إيران في عهدها الصفوي نحو هذا المذهب، ويعيد التذكير بالتباين حتى لا نقول بالانقسام، بين المدرسة العربية والمدرسة الفارسية في التشيع... وهو تباين يتقلص كلما نظرت الحكومات والفاعلين الاجتماعيين للشيعة العرب بوصفهم رعايا لا مواطنين، وتتسع حدته كلما تكرر مفهوم المواطنة المتساوية ودولة المواطنة المدنية الديمقراطية في عالمنا العربي.

الشيعة مكون رئيس من مكونات مجتمعاتنا، وهم أتباع مذهب لا يتنكر سوى الغلاة والتمطرفين لإسلاميته، وهم مواطنون أصيلون، لا رعايا ولا رؤوس جسور ولا طابور خامس... ومن أراد أن يحد من نفوذ إيران الإقليمي، عليه البدء من "مواطنة الشيعة" في بلده، فذلكم هو "بيت القصيد" في أية استراتيجية لتحسين البيت الداخلي و"سد الذرائع" وتصليب الجبهة الداخلية، وبخلاف ذلك، نكون قد قدمنا جزءاً أصيلاً من مجتمعاتنا وشعوبنا، على طبق من فضة لإيران ومشروعها الإقليمي.

.....

* الآراء الواردة لا تعبر بالضرورة عن رأي شبكة النبا المعلوماتية